تجرؤوا عليها مُذ أكلوا همزتها

سهى عبد الحميد القضماني

كنت أحب ما يحب أبي وأريد ما يريد حتى ولم لم أكن أريد ، أحببته حباً جماً... كانت متعتي الكبيرة عندما أسمع عنه ممن عاصروه في فترات حياته التي لم أعيها وكأني أقرأ قصة شيقة أكره أن يفوتني منها حدث صغير.

ومن الأشياء الكثيرة التي كنت أقدره فيها حبه للكتاب واهتمامه باللغة العربية وتذوقها ... ما زلت أسمع صوته الحنون الحبيب إلى مسامعي وهو يقص عليّ قصة مكتبته الضخمة المتنوعة ، أتدرون يا أولادي ؟ كنت أعمل بجانب دراستي وأتقاضى شهرياً سبع ليرات سورية ، اعط والدتي منها ستة ليرات ، واشتري بالليرة الباقية كتاباً...

كنت أحس أن مكتبته قطعة منه وفيّةً له أكثر حتى منا نحن أولاده... يأمرها فتطيع ، يطلب منها فتستجيب ... لا تمل من العطاء... تقابل الإحسان بالإحسان... وكان غضبه عارماً من دعاة العامية ومن الذين خططوا مع سابق إصرار تشويه اللغة عمداً ، ومما لاشك فيه أن العبث بملامح اللغة تدمير لجوانب حساسة من جوارح الإنسان الناطق بها ، يتجلى بعض هذا الخراب بتشويه الأسماء التي تحمل أروع المعاني وتمثل لنا كمسلمين أعلاماً من أمهاتنا وبناتنا... كانت أمي تحمل اسماً جميلاً ، إصرار من حولها على مناداتها به مشوهاً جعلته يغير لها اسمها وسماها بأحلى صفة تتميز بها... في أحاديثه الأسرية كان يوصي بحسن اختيار الأسماء مقروناً بنطقها كما هي لا كما تعبث بها ألسنتنا...

كل مشاعر الغضب الدفين سرت في عروقي وأنا أتجول في السوق الكبير العربي بأغلب ما فيه في بقعة من الأرض رملية تحمل صحراؤها... ملامح الشرق الدافئة... سوق كقوس قزح حيث الجنسيات متعددة واللغات كثيرة أهمها ما صارت تعرف اليوم باللغة العالمية... في طفولتي كانت المعلمات المسيحيات في مدرستي العلمانية ينادين المنظفات بالأسماء القديرة المشوهة حتى و لم تكن أسماؤهن وكنت أتوجع وجعاً طفولياً دون معرفة الأسباب المنطقية لوجعي ، السبب الواضح لمشاعري آنذاك هذا مما لا يحبه والدي ، أما غضبي الآن عارماً جلياً عميقاً وأنا أسمع اسم عائشة يتردد مأكولاً مقلوباً تحمله ماجنة ربع عارية ، ويصفق المغني لها وهي تهز ببطنها كالأفعى التي لا تقدر إلا أن تكون سامة ، ويقف الشبان والشابات وحتى الكهول يستغلون أوقاتهم خير استغلال بهذا اللغو الذي تجاوز سؤالنا حرام هو أم حلال؟ فهو غضب من نوع آخر !...

خدّرت كوكب الشرق الشرق... على أنها وقفت بلباسها المحشوم وبشعرها المحزوم وبسنّها الناضج الوقور... تمسك منديلها الذي كثرت عليه الإشاعات... تردد الجملة عشرات المرات... لأن التكرار يعلم الشطار... فلها الفضل في إبداعها (الغناء والمعلم).

بلى... خَـــدَّرت كوكب الشرق الشرق... فأتى التخدير متناغماً منسجماً... متناسقاً مع غيبوبتنا وزمن كبوتنا...

وانقضى عهد المغني المصلوب على مكبر الصوت فصار زمن أولادنا... زمن الرسالة السريعة والحركة الخفيفة ، زمن ضيق الصدر والنفس القصير... وصار الإدمان على السماع لا يرضى إلا أن يكون مقترناً بالإدمان على الصورة... مزيد من الإنحلال... مزيد من الميوعة ، مزيد من الحليب المغشوش لا بالماء بل بالسم (الفيديو كليب) مصطلح تعريـــبه كافٍ لتعريفه.

كنا قبل ربع قرن نجتمع في غرفة الجلوس ونرى فيلماً عربياً في نهاية الأسبوع وإذا اقترب بطل الفيلم من البطلة ربما فقط ليقبلها من جبينها أو... تخجل أعيننا !! وتحتار أين توجه نظرها... مساكين أولادنا اجتمعت عليهم لحوم الحيوانات التي تتكاثر بسرعة فيأكلون ما كبر دون نمو ويسمعون ما يقال بهذيان العقول الغائبة والحياء المغتصب والذوق المنحرف...

كم...كم... وكم تنفق الدول العربية على أغانيها المصورة ؟؟ المستوردة والتي يدفع أولادنا ضرائبها... ويا لها من خسارة.

في صغري نصحني والدي بقراءة كتاب الأغاني... وكلما مرت أصابعي لتمسك به وتسحبه من مكانه تخاف من كبر حجمه وهيبة هيئته... بذكاء أبوته قال لي مداعباً : اقرأي مقدمته على الأقل لتتعلمي أن غناء القوم مرآة تعكس رقيهم أو انحطاطهم... في هذا الموقف أرى مصداقية ما قال ، غضب يخـــترقني من هذا المغني وغيرة تعصف بصدري ، ووجدتني أتقاتل مع شيطاني الأخرس هذا الشيطان الذي استقر في صدورنا واستمتع بدفء نفوسنا وتكاسل واستساغ السقم وتلذذ به حتى رآه العافية...

لا بد أن تصمت تلك الأغنية في الحال... التفت إلى صديقتي وقلت لها : خذيني لعند المسؤول يجب أن يصمت هذا المغني... اقتربت مني وهمست في أذني برجاء : " أرجوك بلا فضائح " وهل هناك فضيحة أكبر من هذا... انظري إلى اللباس العربي... إلى الوجوه العربية فيها لون الصحراء... تحمل تاريخ رمال الجزيرة.

كرماء واستضافوا الغرباء ، هذا من خصالهم.

عباقرة اقتصاد... أبدعوا بالتجارة وأنعشوا صناديق الدولة ، هذا من عبقريتهم...

أما أن نُسوق وندعَم هذا الغناء بهذا الغثاء فلا.

بصدق أحسست أن هذه البقعة الشرقية هي بيتي الكبير الذي لا أقطنه...

في صَدَفتي الصغيرة كنت الحلزونة التي لم تمنع الغناء بقرار أو مرسوم عائلي لكن اتخذت قراراً أن أصون أذني وأكرمها فلا أرضى لها إلا القيّم من الكلمات ، وأذن الأم مسؤولة ونيتي في التربية كانت خالصة صادقة في إحصان أذني وآذان أولادي ، وإن تسللت بعض الأقراص إلى إحدى غرف بيتي تدخل على استحياء وهي متيقنة بأنها ضيف غير مرغوب به وله حدوده وما تلبث إلا مدة يسيرة ثم ترتدي معطفها وترحل. أردد على مسامعي وعلى مسامعهم... أولادي ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان. أولادي احترموا آذانكم... إنها الأداة الوحيدة التي لم تنم منذ خلقت ولن تنم حتى بعد أن تنتهي حياتكم... سنسمع فيها أصوات أقدام المشيعين الراحلة... وسننادى عبرها لننهض من قبورنا ونبرز إلى الله الواحد القهار ، في الحقيقة كان ينقصني بعض الجرأة لألطم شيطاني الأخرس وأعبر عن رأيي وهذا أضعف الإيمان .دعمّ جرأتي شاب مرّ بعربة مشترياته من أمامي وهو يردد بطرب ساذج... عايشة ... عايشة.

مسكينة عايشته هذه على حركتها المعيبة هي في ركب الفضيلة ساكنة وليست متحركة... ميتة وليست عائشة.

توجهت إلى مكتب الإدارة... وقفت صديقتي التي تسكن تلك الديار محرجة مني...محمرة الوجه... تعض أصابعها ندماً لاصطحابي وتردد كلما سنحت لها الفرصة ‹ القضية لا تحرز أن تعكري مزاجك وتمتزي › أتى الرجل المسؤول عن قسم الأشرطة والكهربائيات وكلمني باللغة الانكليزية... أريد من يكلمني بالعربية بلغة هذه البلاد الرسمية... ترجمت له صديقتي هذه العبارة ووعدت نفسها أن لا تصطحبني بعد اليوم أبداً... والأغنية ما زالت تعاد وتكرر والشاشات الكبيرة الثرية ما زالت تظهر رقصة عايشتها بشكل مخجل... ظن الرجل أني سُرِقت أو أضَعْتُ محفظتي وحتى لا أُمَتِّعْ نظري بمسيرة إشارات الاستفهام التي مشت على صفحة

وجهه... قلت له على الفور : أنا إمرأة مسلمة ناطقة بالعربية هذه الأغنية تجرحني وهذه الصور تؤذي مشاعري... ألا تشكل لك هذه الأغنية شيئاً ؟... تلعثم بعض الشيء وأحس بجديتي...

نحن نسوّق فقط ، هذه بضاعة مرغوبة ومبيعاتها متوفرة في كل مكان.

إذن أنت لست المسؤول عن المبيعات والمشتريات ولكنك مسؤول عن إدارة المكان... أليس من أضعف الإيمان أن لا ندعم هذه الأغنية التي لم يجد صاحبها اسماً يليق بالعري وهز البطن غير اسم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ؟! وربما لخوفي من فشل مهمتي أو لخوفي من شماتة صديقتي... أو للحزن الشديد الذي انتابني سالت دموعي بغزارة أسبق من أن تستجيب لتوسلي وتقف حتى أمسك بها... توجه الرجل المسكين إلى قسم الصوتيات وأطفأ الأغنية نزولاً عند رغبتي أو شفقةً واستغراباً من أمري وملامحه تقول لي... تفضلي سيدتي هل استرحت الآن ها قد قتلت لك النملة الصغيرة الواقفة على ظهر الفيل...

تنفست الصعداء وقد صمت هذا المزمار وغابت الصورة وما زال في كل مراكز التسويق ألوف مؤلفة من الأقراص ، التي نشعر عندما نسمع بعضها ونرى ما يرافقها برغبة ملحة في التقيؤ ، شكرت الرجل وخرجت من المكان لا أحمل معي إلا نظرته الثاقبة التي تقول لي لعل أولادنا يسمعونها على الإنترنت ، لعل المئات في بيوتنا اقتنوها وطربوا لها ، لعل الكثير من البيوت تقتنيها وتحسن ضيافتها دون أدنى حرج... في حقيقة الأمر لقد تجرؤوا عليك عائشة منذ أكلوا همزتك و لم يجدوا مدافعاً أو معاقباً أو حتى معاتباً ، على زهد ما فعلت ، أحسست بملامح وجه أبي تلوح من بعيد عبر أثير البرزخ الصامت وتهمس أحسنت أحسنت... بلى على رغم رحيلك أبي يعنيني ما يعنيك ، ويوجعني ما يوجعك... أهو الحب مفتاح الطاعة والقناعة ؟؟

على زهد ما فعلت أرغمت هذا الشيطان القاطن في صدري أن يتخلص من صمته ولو لبرهة فالصمت يزين العقلاء وهم يعرضون عن اللغو والغيبة والجدل والمراء ويشينهم عندما يقمع الحق ويعتدى على الفضائل والقيم.

على زهد ما فعلت اعتذرت منك أمنا عائشة كيف لا ؟ وأنت صاحبة كل الفضل مؤرخة الحديث النبوي ... فقدت الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم وبقيت قرابة الخمسين عاماً بلوعة حنينك وبوجع فراقك لحبيبك نقلت لنا كلماته وصورت صفاته ودمغت بالحب والثقة واليقين حقيقة حياته العامة وأدق الدقائق لخصوصيته المشرقة. على زهد ما فعلت أظهرت عجزي بحياء بدل أن أجهر ببخلي بغباء.

وقوفاً لحظة صمت أمام حزن عائشة بنت عثمان بن عفان لأكفكف دموعها على مقتل أبيها ومروراً بأميرات البيان عائشة التيمورية ونفائس الكتب التي خطها يراع عائشة الباعونية الأديبة الدمشقية الفقيهة ولكل عائشات تاريخنا المشرف.

وأترك لك سيدي القارئ الجواب عن السؤال المطروح ، وما هو المنظور الذي سيرون من خلاله الفضائل أولاد هذه الحقبة من تاريخ البشرية ؟؟ أليس في عالمنا العربي مؤتمن على الفضائل والأخلاق ؟ وهل ستمر ثورة الفيديو كليب الهائجة على إنسانية هذه الأجيال مرور اللئام ؟!!! أم أنها ستـــترك البصمات المشينة والملامح الماكرة والتي بدأت تظهر جلية حتى ولو حاول البعض سدل النقاب عليها.

أولاد الشرق الذين بدأوا من حيث انتهى الغرب وأولاد الغرب الذين رضعوا أثداء هذه الثقافات وتغذوا عليها... أولادنا الذين ربوا على الجرأة في إبداء الرأي وتمتعوا بالحريات المطلقة فيما يختارون ويقررون... وما أكثر مايستوردون ، والأدهى من ذلك والأَمَر أن تأخذ البدائل الإسلامية نفس المنهج وأن تلبس نفس الثياب بحجة أنها المضمون الأفضل ، صدق القول « لا يصح الصح إلا بالصحيح ».